Yasir Suleiman (ed.), *Arabic Sociolinguistics: Issues and Perspectives*. Richmond, Surrey: 1994. xv + 273 pp.

شهدت السنوات الأخيرة اهتماما متزايدا بالأبحاث في مجال علم اللغة على الصعيدين الاجتماعي والسياسي في اللغة العربية وفي لغات شرق أوسطية أخرى، مثل العبرية، التركية، الفارسية أو الكردية. لكن، في معظم الاحوال، لم تكن هذه الابحاث سوى مقالات متفرقة نشرت في مجلات جامعية أو محاضرات ألقيت في ندوات حول قضايا لغوية أو اجتماعية عامة. وقد يكون السبب الرئيسي لهذا الأمر هو أن معظم مؤلفي هذه الأبحاث متمرسين في اللغويات، التربية، التاريخ، العلوم الاجتماعية، الانثروبولوجيا، أو العلوم السياسية، ويفضلون الاهتمام بمجالاتهم هذه. كما أن دارسي اللغويات الإجتماعية أو السياسية عادة ما يركزون اهتمامهم بالتوجهات النظرية في مجالات اختصاصهم؛ أو، حين يختارون موضوع البحث، فإنهم عادة ما يحجمون عن الأخذ بعين الاعتبار أمثلة أخرى من وجهة نظر مقارنة. وعليه، فإن عدد مجموعات الأبحاث القليل نسبيا الذي صدر في جميع أنحاء العالم في السنوات الاخيرة، هو بالتحديد دراسات لقضايا أكثر ما يجمعها هو البحث عن نتائج نظرية مشتركة.

يهدف الكتاب الذي بين أيدينا إلى تصحيح هذا الوضع بجمعه ثلاثة عشر بحثا تتعلق بالمجال اللغوي–الاجتماعي للغة العربية. عُرضت هذه الأبحاث خلال ندوة عُقدت في جامعة أدينبورغ في تموز ١٩٩٣، كان هدفها "ليس إضافة بحث شامل للغويات العربية الاجتماعية، إنما تحديد تلك المواضيع في هذا المجال الواسع والرائع للعمل والتطوير المستقبلي" (المقدمة، ص xiv). يبدو واضحا أن هذه المجموعة هي أكثر بكثير من مجرد تحديد مواضيع، فهي تقدم العديد من الافكار الجديدة المبنية على أبحاث أصلية. تنقسم هذه الأبحاث إلى أربعة أجزاء رئيسية كما

يلي: ١) الهوية والولاء؛ ٢) وجهات التصرف اللغوي؛ ٣) التنوع والاختلاف؛ ٤) قضايا نظرية. سوف أناقش بعض المقالات التي وجدتها ذات أهمية ومن ثم سأحاول تقييم الكتاب بشكل عام.

في بحثه حول القومية واللغة العربية، يقدم ياسر سليمان بانوراما تاريخية شاملة عن مركزية اللغة في نشوء وتطور الايديولوجيات القومية العربية. وبما أن الأتراك والعرب هم على الأغلب مسلمون، فقد لجأ العرب إلى اللغة من أجل التعبير عن ايديولوجيتهم القومية وفصل أنفسهم عن الجماعات الاخرى في الإمبراطورية العثمانية، وأيضا عن بعضهم البعض. إلا أن الحكومة التركية المركزية، ومن أجل الحفاظ على الامبراطورية، كثّفت من إضفاء الصبغة التركية على مجالات التربية والعمل، موجهة إياها ضد العرب (وربما أيضا ضد باقي الشرائح الإجتماعية). فما كان من القوميين العرب إلا أن أنشأوا جمعيات ثقافية مخصصة لتطوير العربية الفصحى (من أجل تخطي اللهجات الإقليمية المتعددة) وذلك من خلال المحاضرات العامة، المسرح والصحافة. وقد أصبح التعبير بالعربية كعنصر مركزي للبقاء الحضاري أكثر بروزا في الفكر القومي بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ووصول القوى الاستعمارية البريطانية والفرنسية. ومع ذلك، فإن الدفاع عن العربية الفصحى لم يسفر عن دفع قضية الشمولية العربية قُدُماً، إذ تحدها النزعات الوطنية (مثل الفرعونية والفينقية) والايديولوجية الإسلامية الأصولية.

أما الباحثة فريدة أبو حيدر (Farida Abu-Haidar) فقد أعدت دراسة عن الولاء اللغوي لدى اطفال المهاجرين الجزائريين في فرنسا. فهي تذكر أنه منذ سنة ١٩٤٦ بدأت عائلات جزائرية بالانتقال إلى فرنسا وانشاء جاليات من المهاجرين في مدنها الرئيسية. عاش أطفال هذه العائلات في أحياء منفصلة، واستعملوا العربية العامية (أو اللهجة البربرية) في حياتهم اليومية، أما في المدارس فقد تعلموا الفرنسية وتحدثوها بطلاقة. في سنوات السبعينات منحتهم الحكومة فرصاً أوسع لتعلم لغاتهم القومية. وقد تم توزيع ١٠٠ استمارة من أجل فهم أنماط التصرف اللغوي لهؤلاء الأطفال، تم تعبئة وإرجاع ٧٩ استمارة منها. بالرغم من صِغَر هذه

العيّنة، إلا أن أبحاثا سابقة قام بها باحثون آخرون تستطيع دعم استنتاجات هذا البحث بشكل أو بآخر. وما يثير الاهتمام هو أن معظم الذين أُجريت معهم مقابلات ادعوا أنهم يفهمون العربية الجزائرية بشكل تام أو كافٍ. من ناحية أخرى، ٣,١٪ من الأطفال (تتراوح أعمارهم بين ٨-١٠ سنوات) فقط قالوا إنهم يستطيعون التحدث بها فعليا، بينما أكثر من نصف الأشخاص في المجموعات المتقدمة في السن ادعوا أنهم يستطيعون ذلك، بل لديهم أيضا معرفة واسعة بالأمثال والإصطلاحات الجزائرية ويميلون إلى استعمالها أثناء تكلمهم بالفرنسية. الولاء اللغوي وحده لا يستطيع الحيلولة دون استعماله الفرنسية، لكن باستطاعة العربية الجزائرية الصمود كلغة للاتصال من خلال كونها تمثل تخطي الولاء الاجتماعي والكبرياء العرقية الحضارية.

استعمال أسماء شخصية معينة هو الموضوع في بحثين آخرين. الأول، لمشيرة عيد (Mushira Eid)، يبحث في أساليب التسمية في إعلانات النعي المصرية وذلك بواسطة دراسة هذه الإعلانات في جريدة **الأهرام** اليومية على مدى خمسين عاما (١٩٣٨-١٩٨٨)، وتستنتج عيد أن التنوع في اختلاف الأسماء هو على أساس جنسي. في عيّنة مؤلفة من ١٣٣٧ إعلان نعي تمت دراستها، هنالك ٢١٠ من الأشخاص المتوفين لم يتم ذكرهم باسماءهم الشخصية إذ كانوا من النساء، وتم تعريفهن بواسطة "أم فلان" أو "زوجة فلان" وما يشابه ذلك. بالإضافة إلى هذا، لم يتم ذكر أسماء الأقارب من الإناث في إعلانات النعي هذه؛ أي لم تذكر المرأة المتوفاة على أنها "أم فلانة" إنما على أنها "حماة فُلان". بالمقارنة مع ذلك، فقد ذُكرت دائما الأسماء الكاملة للرجال. وقد فسرت عيد الأمر على انه استمرارية لعملية إخضاع هوية المرأة للرجل.

توجه آخر في التسمية تعرضه شينا جاردنر (Sheena Gardner) التي خصصت بحثها التغيير النابع من تعاقب الاجيال في السودان. تعتبر جاردنر أن أنماط التسمية الجديدة تعكس التغييرات الحاصلة في القيم من جيل لآخر، فكبار السن ينفرون من استعمال الأسماء العصرية

لأنها، حسب رأيهم، غير مباركة وبدون معنى. يشير بحثها إلى أن الأسماء الجديدة (النابعة عادة من إحياء أسماء تقليدية) أكثر انتشارا، حسب الإحصائيات، بين الإناث منه بين الذكور. قد يبعث هذا للوهلة الأولى على المفاجأة، لكن التفسير يكمن في أن الأبناء يواصلون التمسك بالتراث، بينما تُتاح للبنات فرصة استعمال أسماء جذابة. يدور البحث بعد ذلك حول تسمية الإناث في السودان مقارنةً مع معطيات من دول عربية أخرى، مع الإشارة إلى أن أسماء عصرية كثيرة دخلت السودان من مصر ودول الخليج. الاستنتاج النهائي لهذه الدراسة هو أنه إلى جانب ازدياد عدد الأسماء الجديدة، فقد شهدت الستينات والسبعينات ظهور أسماء كثيرة ترتبط معانيها بالحب والأمل، وفيما بعد، في الثمانينات، تم إحياء الأسماء الدينية – وكل هذا على الأغلب يعكس التغير والاستقطاب الاجتماعي.

يبحث بيرنارد سبولسكي (Bernard Spolsky) في تأثير سياسة اللغة على وضع اللغة العربية في إسرائيل، ويقول إن نمو هذه السياسة تم صدفةً، إلا أنه يذكر بعض النتائج لذلك: اللغة العربية هي لغة رسمية تستعمل للتدريس في كل المدارس العربية والدرزية وتُدرس بمستويات مختلفة في المدارس اليهودية؛ هي أيضا لغة مستعملة في الراديو والتلفزيون (وكان يجدر به أن يضيف أنها تستعمل في قاعات المحاكم والبرلمان). ومع ذلك، هنالك عدم تناسق، مثلا عادة ما يتم إهمال اللغة العربية في لافتات الطرق. وبينما تُدرس اللغة العبرية في كل المدارس العربية، بدءاً من الصف الثالث، على أنها لغة رسمية للدولة، فإن اللغة العربية لا تدرس إلا في جزء من المدارس اليهودية، ولكن العمل جاري على إصلاح هذا الوضع وذلك بإعداد معلمين للغة العربية كلغة اجنبية وتوسيع تدريس اللغة والحضارة العربية في المدارس اليهودية.

باقي الأبحاث تناقش مواضع أخرى، مثل: اللغة، الشعب والدولة في الجزائر (مايك هولت) (Mike Holt)؛ التمييز الاجتماعي في سجلات المحاكم في دمشق العثمانية (نجوى القطان) (Najwa al-Qattan)؛ التكلم مع الآلات في العربية (ايلينور صايغ) (Elinor Saiegh)، النكتة ما فوق اللغة (metalinguistic) (ابراهيم محاوي) (Ibrahim Muhawi)؛ تكلم الفصحى في

القاهرة (ديلوورث باركينسون) (Dilworth Parkinson)؛ ردود فعل على التغير اللغوي في المدن (محمد بنرباح) (Mohamed Benrabah)؛ تعريف اللهجة حسب اللهجات العربية اليمنية (جانيت واطسون) (Janet Watson)؛ اللغة العربية في القرون الوسطى كـ "اتفاقية اجتماعية" (أدريان جولي) (Adrian Gully).

هذه الدراسات بشكل عام لا تشكل وحدة مترابطة، بل إنها تهتم بمواضيع لغوية-اجتماعية منفصلة مستعملة توجهات دراسية متنوعة. وبهذا فهي تعكس بعض الجوانب المختلفة من القضايا اللغوية الاجتماعية، مع توجيه اهتمام خاص للغة، المجتمع والحضارة العربية في يومنا الحاضر (ما عدا مقال جولي). الميزة المشتركة لمعظم هذه الدراسات (وربما لجميعها) أنها ليست أبحاثاً وصلت إلى نهايتها وإنما أبحاث لم تنته بعد. الجهود التي تبذل في هذا المجال تجعلنا نأمل بأن القضايا اللغوية العربية لن تكون بعد اليوم مجرد موضوع يتم تجاهله في الدراسات اللغوية العامة. والفضل في هذا يعود إلى محرر الكتاب، ياسر سليمان، الذي جمع ونشر هذه الأبحاث. وربما كان يجدر بالبروفسور سليمان اضافة فصل للتلخيص والمقارنة وأيضا فهرس بالمواضيع.

يعقوب م. لنداو

الجامعة العبرية – القدس